محمد كرد علي خزانة علم

الأستاذ محمود العابدي

في السادس عشر من نيسان ١٩٤٦ ذهبت مع وفد رسمي وشعبي من صفد للاشتراك في حفلات عيد الجلاء في دمشق ـ جلاء الاستعمار الفرنسي البغيض ، ولقد عشت ثلاثة أيام في فرح ونشوة لست اعتقد أنني سأعيشها مرة أخرى . لقد كانت دمشق غارقة في نشوة من الفرح والحبور لا مزيد عليها ولقد أبدعت رجالات الأحياء وشبانها بابتكار أنواع الزينات التي كانت تتخذ من المرجة (ساحة الشهداء) ملتقى لها من غياب الشمس حتى منتصف الليل .

بعد ذلك أخذت أسأل عن أصدقائي وأجتمع بهم . وتكرم اثنان منهم بوضع برنامج أسبوعي ، وفي اليوم الرابع أخذني الدكتور محمد عطايا ـ الصفدي الأصل والدمشقي الإقامة والمحبة ـ إلى دار الكتب الظاهرية وعرفني على قيمها ثم رافقني إلى المدرسة العادلية التي هي مقر المجمع العلمي العربي في دمشق ، وعرفني على رئيس المجمع ، عالم سوريا ومؤرخها وأديبها ، الأستاذ الرئيس محمد كرد علي رحمه الله ، وبعد أن تم التعارف استأذن الدكتور عطايا وذهب لشأنه وتركني أنعم بالاستماع إلى شتى أحاديث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرئيس الرحالة الذي سبق لي أن تعرفت عليه من خلال مقالاته وكتبه العديدة – ولا سيما خطط الشام في أجزائه الستة ..

سألني عن صفد وعن فلسطين وأهلها وموقفهم من اليهود ، وعن الازدهار الزراعي والنهضة التعليمية في فلسطين – ومن ثم تطرق للمقارنة بين الاستعمارين – الانكليزي بفلسطين والإفرنسي بسورية . . . ولما أعلمته أنني مشغول بوضع مؤلف عن صلاح الدين الصفدي ابتسم وفرح إذ عرف أن مواطناً للصلاح جاء يسأل عنه وعن أخباره في عاصمة ديار الشام الكبرى . وبعد التبسط في هذه الأحاديث ألحّ علي أن أجيئه غداً .

وفي العشرين من ذلك الشهر شربنا شاي الصباح ، وبدأ يطرح علي الأسئلة عن الصفدي ولم يكن ينتظر مني الأجوبة – بل كان يسرع للإجابة بسيل متدفق من المعلومات التي لا يمكن أن توجد في كتاب ، وامتد بحثه المتدفق إلى المستشرقين ونبّه بشدة إلى الحذر منهم – فهم على الأغلب صاحب هدف يسعى لتحقيقه – سواء أكان لخير العرب والمسلمين أو لغير ذلك – مع الاعتراف بتوسعهم وتعمقهم في أبحاثهم ، وإليهم الفضل في تجلية كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية وإحياء التراث الأدبي للعرب – وخص منهم الأمير الايطالي « كايتاني » – صاحب أكبر مؤلف في تاريخ المسلمين ، ونوّه كثيراً بالمساعدات التي قدمها له في مكتبته العامرة والتي أمضى فيها مايربو على الشهر ، وهو يأسف لهذه الشخصية العلمية كيف انصرفت مؤخراً إلى السياسة – تلك الأمنية التي لم ينجح في الوصول إليها بسقوطه في الانتخابات والتي حولته قليلاً عن موضوع اختصاصه الذي كان يمكن أن تتسع الفائدة منه .

كما يخص المستشرق العالم المجري « غولدزيهر » بالثناء العاطر على جهوده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في حفظ التراث الإسلامي والاعتراف بأهميته وإقناع الغربيين بخدماته الجلّى للحضارة البشرية .

وكذلك العالم الألماني « مارتن هارتمن » وصنوه آدم متز صاحب كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع وقد عرفهم من مكتباتهم ، ومن حضوره لاثنين من مؤتمراتهم في سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٠ .

الصلاح الصفدي :

قال لي رحمه الله : إذا رجعت إلى المجلد الثامن من مجلة المقتبس الصادرة في دمشق سنة ١٩١٤ وجدت لي مقالاً مطولاً يعطيك فكرة واضحة عن هذا المؤلف : وبالفعل عندما طلبت هذا المجلد من مكتبة دار الكتب العادلية وجدت فيه :

« صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي أحد رجال القرن الثامن . ولد في صفد سنة ٦٩٦ هـ وتوفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ وهو إمام في اللغة والشعر والتاريخ والفقه ، وقد تخرج على علماء دمشق في عصره فأخذ الشعر عن جمال الدين بن نباتة ، واللغة عن أبي حيان النحوي ، والفقه عن الحافظ المزي وابن جماعة ، والتاريخ عن الذهبي ، والمغازي والسير عن ابن سيد الناس . وتولى عدة مناصب إدارية ومالية في صفد والقاهرة وحلب ودمشق وقبره اليوم معروف بصفد .

وقد كان من المؤلفين المجيدين — ذكره بروكلمن في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية المطبوع سنة ١٨٩٨ وقال إن له ثلاثين مصنفاً تحوي على مئة مجلد ويكاد يكون اخصائياً في التراجم . وأهم كتبه الوافي بالوفيات يدخل في بضع مجلدات كبرى تحتوي على زهاء عشرة آلاف ترجمة من أول عهد الإسلام إلى عهد المؤلف ، وفيه ما في وفيات الأعيان لابن خلكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وطبقات الأدباء لياقوت — مع زيادات كثيرة فاقت هذين المؤلفين . . ولقد كان يظن أن كتاب الوافي فُقد في جملة ما فقد من كتب العرب ، لكن تبين أن أجزاءه مبعثرة في خزائن الكتب في ديار الغرب .

وقد نشر المستشرق أميل لا مار في المجلة الآسيوية في باريز مقدمة كتاب الوافي مع ترجمتها بالفرنسية وعلق عليها حواشي في أربعة أجزاء ثم نشرت فيما بعد بمجلد خاص ، وفي كتابة التاريخ راعى الصفدي ما يراعيه كبار المؤرخين من القيود فقد قال : ويشترط في المؤرخ الصدقَ ، وألاّ يعتمد فيما ينقل على الذاكرة ، وأن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة علماً وديناً ، وأن يكون حسن العبارة وحسن التصور ، وألاّ يغلبه الهوى فيطنب في ترجمة من يحب ويبخس في غير ذلك . وقد طبق الصفـــدي هذه الشروط في كل ما كتب في التاريخ ، وساعده على هذا الإتقان تنقّله في ربوع مصر والشام في أيام كانت خزائن الكتب موفورة ، وكان الملوك وأهل الخير من العلماء والأعيان يمدون المدارس والجوامع بالكتب ، وكان الناس يتنافسون في استنساخ كل جيد منها ، ويقول العلامة كرينكو : إنا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة نحاول عبثاً الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها — والفهرست التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب يشغل مجلداً ضخماً .

وابتدأت جمعية المستشرقين الألمانية بالنشرات الإسلامية فطبعت في اسطنبول سنة ١٩٣٠ المجلد الأول الذي يضم المحمدين وكان عددهم ٢٤٦ شخصية في ٣٨٦ صفحة ، كما نشرت مجلات الاستشراق في روما عدة مقالات عن الوافي وعن صاحبه » .

وتمنى الأستاذ كرد علي يوما أن يتيح الله من يقوم بطبع كل مخطوط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أجزاء هذه الموسوعة ، ولقد استجاب الله دعاءه ، إذ بلغ عدد المطبوع من أجزاء الوافي تسعة مجلدات حتى يومنا هذا .

التذكرة الصلاحية :

وفي اليوم الثالث وضع بين يدي مقالاً نشر في الجزء الثاني من المجلد التاسع من مجلة المجمع الصادر في آب سنة ١٩٢١ بقلم الدكتور داود الجلبي من الموصل وهذا شيء مما ورد فيه :

عثر أحد تلاميذ ثانوية الموصل النجباء في مكتبة الحزب الوطني في الموصل على كتاب مخطوط قديم مجهول . فجاءني به يسألني تصفحه لعلّي أقف على شيء من أمره . وجدته مجلداً بجلد أحمر قد اسود . . وقد كتب على ورق ثخين بحبر أحمر في رؤوس المواد وأسود في المتن وأوراقه ١٨٢ ورقة ، في كل صفحة ٢٠ سطراً وعلى حافة الكتاب كتابة عسرة القراءة ، إذا أمعنت النظر فيها تقرأ : (مجموعة صلاح الدين الصفدي) .

ومن تصفّح الكتاب تحققتُ أنه للصلاح الصفدي ، وفيه مراسلات المؤلف مع معاصره ابن نباتة وغيره ، ويذكر صور تواقيع كتبها إذ كان رئيساً لديوان الإنشاء . هذا الكتاب حلقة من سلسلة طويلة على ما يظهر جاء في آخره مانصه : الجزء الثلاثون من أجزاء المصنف ومن خطه نقلت والحمد لله .

هل مجموعة صلاح الدين الصفدي هذه مجموعة معروفة ؟ ويحسب جرجي زيدان أنها التذكرة الصلاحية التي يقول عنها إنها كتاب مطول في الأدب والشعر في ثلاثين مجلداً .

وفي الجزء الحادي عشر من سنة المجلة تعليق بقلم المستشرق كرينكو جاء في أوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« لما قرأت ما كتبه السيد داود الجلبي .. من كتاب الصفدي ذكرت أني رأيت في مكتبة وزارة الهند بلندن نسختين من التذكرة الصلاحية .. وقد نقلت أبحاثاً منها ... ويظهر أن الصفدي نقل طول حياته من كتب مختلفة وقعت بين يديه، فالتقط ما أعجبه على غير ترتيب وأكثره مقتطفات نثرية وشعرية غير مطولة .

بعد أن فرغت من ترجمة الصفدي التي كتبتها في المعلَمة الإسلامية وقع في ملكي أربعون ورقة بخط غير قديم من كتاب « في خطأ العوام وتصحيف العلماء » وقد نبهت في الترجمة المذكورة على أن الصفدي في آخر عمره صرف من كتب التراجم إلى كتب اللغة . ولعل هذا التصنيف آخر مؤلفاته ولم يتم . وتدل على أن النسخة ، أصلاً ، مأخوذةٌ من مسودة المؤلف كثرة البياضات بين كل فصل . ومع هذا اختصر أسماء الكتب التي نقل منها بحروف مكتوبة بالحمرة .. ورجائي أن تكون لأحد قراء المجلة معرفة بالأصل الذي نقلت منه نسختي - فإنها شامية الأصل بلا شك حيث كانت من جملة كتب الشيخ أحمد فارس الشدياق » .

ثم نشر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الصفحة ١٨٠ وما بعدها من المجلد العاشر من مجلة المجمع تحت عنوان : **التذكرة الصلاحية** ما يلي :

« طالعت في الجزء العاشر من المجلد التاسع من مجلة مجمعنا العلمي العامر ما نشره العلامة المستشرق (ف . كرينكو) في شأن الجزئين من تذكرة صلاح الدين الصفدي المحفوظين في مكتبة وزارة الهند بلندن ، ووصفه ما احتويا عليه من الفصول الأدبية فأحببت أن أفيد قراء هذه المجلة بوجود جزء مفرد من التذكرة الصلاحية بخزانة مخطوطاتي (مكتبة آل عبد الوهاب بتونس رقم ٥٠٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يخفى أن هذه المجموعة الأدبية النادرة المثيل هي مبعثرة الأجزاء، فالموجود منها متفرق بين مكتبة غوطا والمتحف البريطاني واكسفورد ودار الكتب المصرية وغير ذلك .

أما الجزء المحفوظ بمكتبتي فهو في ١٩٢ صفحة مكتوب بطالعه بالذهب المزركش : « الجزء السابع من التذكرة الصلاحية » للشيخ الإمام العالم العلامة خليل بن ايبك الصفدي . وبآخره ما نصه : « تم الجزء الرابع عشر من التذكرة تأليف العلامة صلاح الدين الصفدي . وهو السابع من هذه النسخة والحمد لله رب العالمين » .

فيتضح من هنا أن عدد أجزاء التذكرة يختلف باختلاف النسخ . فقد جمع ناسخنا كل جزأين في واحـــد . وخط هذا الجزء نسخ شرقي يرجـع بحسب الظن إلى القرن الثامن — عصر المؤلف — والنسخة جميلة مقروءة اعتنى بها صاحبها وإن لم يسم نفسه » .

وفي اليوم الخامس أحضر لي المجلد السادس عشر ص ٣٨ » من مجلة المجمع لأقرأ ما كتبه عن كتاب آخر للصفدي اسمه « جلوة المذاكرة وخلوة المحاضرة » قال فيه :

« الصلاح الصفدي من المكثرين من التأليف ، المجوّدين فيه . ومن جملة كتبه مخطوط في الخزانة التيمورية من فروع دار الكتب المصرية ، هذا الكتاب ، أوله :

الحمد لله الذي جعل لسان العرب أفصح الألسن .

قال : وبعد ، فهذه أوراق أودعتها أزاهر ما حضـــر في ذاكرتي ، وأدرجت ضمنها جواهر ما قذفته حافظتي ، عرضت حاصل فكري فانتخبت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منه هذه الزبدة ، ورقمته في هذه البرود المحررة وأنبته في رباها الزاهرة والتزمت أن أورد فيها ما رق معناه وراق لفظه ، وشق الإتيان بمثله وشاق حفظه . وهذا الأسلوب حافظ عليه أهل الأدب من المتأخرين ، وسلكه أهل الذوق السليم من الناظمين والناثرين ، فجلوا أبكاره المستكنة في حدود خواطرهم ، وأطلعوا أقماره المستجنة في آفاق ضمائرهم ، لأن ما أتوا به أطرى في المسامع وأطرب ، وأسرى في القلوب وأسرب .

ومقدمة الكتاب في معرفة فنون الشعر وألقابها ، قال : إن الشعر إن أثني به على حي فهو مدح كقول أبي الطيب في سيف الدولة :

نهبتَ من الأعمار ما لو حويتَه لهنئت الدنيا بأنك خالد

ولو ذكر فيه لؤم أو جبن أو بخل أو ما هو ملحق بذلك فهو هجاء كقول بعض العرب :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

زعم بعضهم أنه لم يسمع أشد هجواً من هذا البيت ، وذلك أنه وصفهم بالبخل من كون نارهم تطفأ لئلا يهتدي الأضياف إلى طلب قراهم — ثم إنه بالغ في وصفهم بشدة البخل لأنهم يطفئون النار ببول أمهم ، حرصاً منهم على الماء — ثم إنه وصفهم بالجبن والكسل لأنهم يتركون أمهم تتولى خدمتهم ليلاً ولم يأنفوا من ذلك ثم إنه وصفهم بالعقوق وقلة الأدب إذ يخاطبون والدتهم بمثل هذا الخطاب السفيه ، ثم إنه وصفهم بالقلة والصعلكة بحيث أن نارهم في القلة إلى غاية تطفأ ببولة المرأة . والكتاب كله على هذا النحو في ٢٠٣ صفحة صغيرة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم قال رحمه الله : عندما عم الجهل البلاد العربية ومات من يقدّر قيمة الكتب أخذت مخطوطاتنا تتسرب إلى خارج البلاد . وفي حاضرة الدولة العثمانية عدة دور عامة وخاصة تسربت إليها الكتب العربية ومن ضمنها مؤلفات الصفدي .

ففي اسطنبول مكاتب عبد الله فكري وعاشر أفندي وكوبرلي ونور عثمانية التي فيها سبعة أجزاء من كتاب الوافي ثم مكتبة أيا صوفيا .

وفي أوربا مكاتب الاسكوريال في إسبانيا . وفي مكتبة المتحف البريطاني بلندن تسعة مجلدات من الوافي ، وفي مكتبة أكسفورد ١٢ مجلداً منه . ومكتبة المكتب الهندي بلندن . وفي مكتبة باريس مجلدان ، وفي مكتبة شيفر مخطوط كتاب أعوان العصر في ١٢ مجلداً ، وفي مكتبة برلين توجد مخطوطة التذكرة الصلاحية في ثلاثين مجلداً ، وهناك مكتبة غوطا التي تضم قطعة من الوافي بخط المؤلف ، وهناك في ليدن بهولندة وفي فينا بالنمسا مخطوطات عربية ذات أهمية .

وفي البلاد العربية مكاتب تضم مؤلفات الصفدي منها دار الكتب المصرية ، والمكتبة التيمورية فيها تسعة مجلدات من مؤلفات الصفدي ، والخزانة الزكية «خزانة أحمد زكي باشا» ، وكمكتبة حلب التي تضم أربعة مجلدات من كتب أديبنا الصفدي ، والمكتبة الصادقية بتونس وفيها تسعة مجلدات ، ومكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، والمكتبة الخالدية بالقدس ، والمكتبة البارودية في بيروت ، ومكتبة عيسى اسكندر المعلوف في زحلة .

وسوف تكشف لنا الأيام أن في بعض ديار العرب مكتبات خاصة فيها أجزاء من مؤلفات الصفدي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي اليوم السادس أحضر جميع المطبوع من كتب الصفدي وهي :

١ – الغيث الذي انسجم على شرح لامية العجم ، طبع في مصر .

٢ – نكت الهميان في نكت العميان . طبع في مصر .

٣ – لوعة الشاكي ودمعة الباكي – طبع في مصر .

٤ – تشنيف السمع في انسكاب الدمع – طبع في مصر .

٥ تمام المتون في شرح لامية ابن زيدون « « «

٦ – الأرب من غيث الأدب « « «

٧ – رشف الرحيق في وصف الحريق – طبع في الآستانة .

٨ – رشف الزلال في وصف الهلال « « «

٩ – الروض الناسم والثغر الباسم « « «

١٠ – جنان الجناس « « «

١١ – نصرة الثائر على المثل السائر – طبع في ليدن في ١٥٣ صفحة

١٢ – مقدمة الوافي بالوفيات – طبعة المجلة الآسيوية الفرنسية ١٩١١ – ١٩١٢ ، ونشرت في كتاب على حدة مع ترجمة فرنسية بقلم أميل لامار .

١٣ – المجلد الأول من الوافي .

لا بد لك من الرجوع إلى هذه المراجع عن الصفدي :

١ – الطبقات للسبكي ج ٤ ص ٩٤ ، ١٠٣

٢ – الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ١٨١٠ – ١٨٢٣

٣ – معجم المطبوعات العربية ليوسف سركيس .

٤ – تاريخ آداب اللغة العربية لكارل بروكلمان ج ٢ ص ٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ كتب مادتها فريتز كرينكو

وفي اليوم السابع عرضت عليه ما كنت قد حصلت عليه من صحبته خلال أسبوع ، وهو يعادل ما كنت قد حصلت عليه في سبع سنوات ويشمل باقي مؤلفاته فابتسم .

والآن وبعد مرور ثلاثين سنة على هذا اللقاء المفيد أتقدم بمقالي هذا لأعترف بالفضل العميم لعلامة الشام في النصف الأول من القرن العشرين . رحمه الله وعوض ديار الشام من يخلفه في هذه القمة الشامخة وفي هذا المقام السامي من مقامات العلم العالية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net